ذاك الشخص وتلك الشخصية

حمد محمد المرعي

قبل فترة قريبة كان الاولاد يغيرون في توزيع اللوحات الفنية الجدارية في المنزل عندما انتبهت احداهن، ممن لهن بعض الميول في «التصوير الفوتغرافي» وسبق ان انجزت دراسة في هذا المجال بعنوان «الرسم بالضوء»، متسائلة عن لوحة مكبرة لاحد صقور القنص او الصيد «طير شاهين» واين موقعه من الاعراب ما بين لوحات «ديناميكية السيرياليزم» والاخرى مثل «تعبيرية التشكيل» وما بين هذا وذاك من «خطوط ومكعبات بيكاسو» وغيره. فما كان الا ان اوجزت لها ان هذه اللوحة هي صورة حقيقية مكبرة لطير القنص هذا صور فوتغرافيا وعلى الطبيعة . والذي حقق هذا مشكورا وفي لحظات وبدون اي توان او تردد بل بالترحيب المحرج هو الشيخ الدكتور ابراهيم الدعيج الصباح، وكان ذلك في مزرعته في الفنطاس عام ١٩٨١.

والدكتور ابراهيم الدعيج الصباح هو من تلك الفصيلة التي لا تحتاج لتعرفه بان تتعرف عليه او ان تتعرف به. وكما الحياة تكونها التقاطعات وغالبا ما توجهها المصادفات ان لم تقدها، فلقد كان اتصالنا محض مصادفة املاه تقاطع عمل وجيز بزمنه ضئيل ببعده قبل قرابة العقدين من الزمن. الا انه ومنذ ذلك الحين لم ينقطع الاتصال من ذاك الطرف ولا التواصل من هذا ولسوف يظل ما شاء الله فهو ذاك الانسان الذي يبهرك بشخصه قبل شخصيته... او هل هو العكس! بل وان الامر ليس هكذا فقط، فبالاضافة الى ما يضفيه من لطف ويضيفه من مرح وتفقده لجلسائه حتى وان كان لا يعرفهم فانه وليس غريبا عليه ان يبادر قولا وفعلا ليجعلك مرتاحا مستقرا بوجودك في مجلسه المتمثل في شخصه وشخصيته. وان كان ذلك كذلك، فما ان يستقر بك الامر الا وتكتشف – وللوهلة الاولى وليس ما بعدها، ان ما وراء شخص تلك المجالسة الا وتتأصل شخصيته تدور بك في فلك الفكر والثقافة يمينا وشمالا، وما ان تتجاوز تلك الوهلة حتى لتكتشف ايضا ان هذا لم يكن ابدا على حساب الاحاطة العميقة بقضايا الساعة – القريبة والبعيدة، او حتى بتلك وما يتصل بالامور الحياتية المتشعبة بل انها قد [illegible] من خلالها وضمنها ومن حولها. ولدي احساس ان هذا لم يك الا لتعطشه لمغارف المعرفة بانواعها وتوقه التعمق في كل شيء وحتى اللاشيء واننا لنتسائل احيانا ان كان هذا يتم بعمله او من الذي يجد له مكانا في خلده... فهل هو يعرف ذلك عن نفسه لست ادري! ولهذا فانه لا غرابة عندما لخص الدكتور بوصباح احدى القضايا الجدلية من التي اقام الناس عليها الدنيا ولم يقعدوها بعد، بل واختصر جميع تفرعاتها وتشابكاتها ومداخلاتها بما لا يتعدى الثلاث جمل فقط لا غير وبأبسط الكلمات : «الاجماع مفقود والمصلحة تحكم والدين يسر ولا عسر». انه لايجاز منطقي موضوعي ما بعده من ايجاز لاحدى قضايا الساعة الجدلية والحامي وطيسها الا وهي قضية «حقوق المرأة السياسية».

أو ليس هذا ما يسمونه في الفقه وعلم الكلام والقياس وحتى وبالاخص في العلوم الطبيعية بـ «الاجادة في الربط بين العلاقات والمحاور واستخراج المتوازيات والمتماثلات والمتخالفات بغية الوصول الى التجريد الموضوعي المنطقي للحقائق. الا انه فوق هذا وذاك فاذا كان ذلك هو الجانب الفكري عميقا ما كان لهذا المرؤ، فان الجانب الروحي لديه يتمثل في البساطة في طبيعته والفطرة في مجلسه حتى لانها تغلب عليه وتتغلب عليه. ولذا فأنت لا تحرج منه الا لتواضعه المتأصل والمتمثل بعلم الانسان لقدره ومعرفته بقدره. فقد تصادف البعض ممن تجدهم متراخين حتى لمصافحتك ناهيك، وكما تمليه حميد العادات والتقاليد، عن القيام والسلام حتى وان كانوا بضيافة من يبادر منتصبا مرحبا تجسيدا لحنيف مكارم الاخلاق لمن يحل عليه وعلى جلساته مكرما له ولمجلسه. ولكن لا هكذا الامر مع الشيخ الدكتور ابراهيم الدعيج الصباح، فهو بلا شك يمثل المشيخة المتجذرة بقيمها وقوامها وليست مجرد غلاف لظاهر الشخص لتغطية ماخفي من الشخصية. ولهذا دائما ما تجدك عزيزا كريما عنده بدون ان تدري متشرفا به وبشخصه بدون ان يدري.

ولكن ليس هذا ما ينفرد به البتة. فمع ان مشاغله مستمرة ومتواصلة ويومه لابد وان يتعدى طول دوران الساعة، الا ان هذه الاعاقة المبررة لم تتخذ مبررا معيقا لاقامة ديوان عامر يشبه ولا يقل كيانه عن منتدى فكري ثقافي. وكيف لا وهو الذي بتصميمه وتوه كسر حاجز الطموح بحصوله على «شهادة الدكتوراه» وفي احد اوسع مدارك المعرفة واشق افاق الدراسة محيطا وجدلا. وليس ذلك فقط، بل ومن خلال نظام ونظم ان لم تكن غريبة علينا فهي بعيدة كل البعد عنا. فالدراسات الدستورية من ضمن المحتوى الديني الاسلامي، في بلاد اضافة الى كونها مسيحية غريبة فهي غريبة اللسان والاسلوب، مهمة لا يستهان بها ولا يمكن ان يستهان بها.

وحتى ان لم يكن ذلك كذلك فأين اتي بالوقت كون الوقت ركيزة كل الاحوال والمدارك واشكالية كل الازمان والمواقيت. بل وهو الذي لم يتفرغ لهكذا «مهمة علمية»، وعندما نعلم ان مسؤوليات الوظيفة كانت متداركة بوجوده وانه ليس هناك من سوق يبتاع منه الوقت ولا مصرف يقرضه، فانه بلاشك قد استعار او لعله استرق هذا الوقت وهذا المجهود على حساب شخصه واهله واحبائه. فهل هذا هو الطموح او هي التضحية من اجل الطموح؟ ولكن قبل هذا وذاك فهل كان محتاجا لمال او مركز ليسعى لهكذا شهادة اكاديمية او درجة علمية. بالتأكيد لا نعتتقد انه في عوز الى مال وحتى ان كان ذلك فدرجة «الدكتوراه» ليست بالمؤهل المطلوب لهكذا غرض. بل ولا كذلك المركز الوظيفي، فشهادة «تخصصية» من هذا النوع حتى ولو علا شأنها فليس فيها الجواب الكافي للسؤال الوظيفي الشافي.

فلقد تبوأ هو المراكز الوظيفية العديدة والمتنوعة ولم يكن بحاجة اليها بقدر ما كانت تمثل له المواطنة الحقة وخدمة الوطن. وحتى عندها فلم يبدأ من القمة، بل تدرج في سلم المسؤوليات ودار في ردهات الواجب الى ان اخذ التقدم الوظيفي مجراه الطبيعي ووصل من خلاله الى ما وصل اليه. حتى الى ذلك وعندها فلم يعترض عندما اصبح مركزه في اقاصي شمال البلاد وفي فترة خطرة امنيا حرجة وظفيا، حين نستذكر في هذا الشأن فترة ما بعد الغزو الغاشم والاحتلال الغادر مباشرة. بل وبالاضافة فانه، وفي حين يستنكر الكثير مقر عمل ابعد من مدى النظر او ابعد من اقرب زاوية الى السكن، بل وحيث الغير ايضا دائما ابدا ما يتوقع ان التقدم في المركز الوظيفي يعني تخفيف المتاعب والمشاق والاعباء، فاننا نجد الدكتور ابراهيم يستلم مسؤولية منطقة يعتبر الوصول اليها سفرا ومن اكبر مناطق البلاد مساحة واكثفها سكانا، وزد على هذا ما يكمن فيها من جل المشاكل الامنية والاجتماعية بأسباب موقعها الجغرافي وتطورها البشري والعمراني. انها بلا شك ولمن خبرها وعرف خباياها لمهمة من المهام التي قد يتردد الكثير، وخاصة بعد قضاء السنين الطويلة في الوظيفة العامة، في تحمل اعبائها وتبعاتها وذلك وفقا للقول المأثور بان يكون «ختامها مسك» فهل كان قبوله لهكذا عمل سعيا لمركز او تطلعا لمميزات وظيفية؟ الجواب لابد وان يكون في خانة النفي لهذا وذاك. فمن جهة اولى لا هكذا مركز ولا هكذا وظيفة تخدم هكذا اهداف. ومن جهة اخرى، فان تحقيق هكذا اهداف قد يتم وبسهولة اكبر وايسر خارج مجال الوظيفة والمركز عند التحقق من قدرات وامكانات والقنوات المتاحة لهذا الرجل. فاذا لا يظل غير عنصرين لا يمكن اغفالهما باي حال من الاحوال بهذا الشأن كونهما من مقومات الشخص ومتصلة مباشرة بابعاد الشخصية ومكوناتها : الطموح والتفاني او ما يطلق عليه مجازا او عرفا «الشخص المشارك لا المشاهد في مسرح الحياة» افلهذا دائما ما نجده متفانياً وغير متوان مطلعا على احوال منطقته ومدبرا لامورها على الدوام ومكرما لابنائها وكأنه أب لهم. ويتم كل ذلك بدون التطبيل الاعلامي او الهالات الاضائية مما تعودناه من مسؤولين ادنى منه مركزا واضعف منه تفانيا واقل منه انجازا او عطاء.

فهل يا ترى نحن امام، بما ورد من هذه «الشذرات» ان جاز التعبير او ما اوجز من بعض الملامح، تأصل في التحضر والثقافة او سعة في الاطلاع والانغماس الفكري؟ او هل هو كل هذا مقولبا باطار ثقة النفس وصفاء الذهن والثراء الروحي. وان كان ذلك كذلك فلا غرابة اذن، وبعد كل هذا وذاك، في انه يثريك بدون علمك ويقنعك بدون علمه. فهذا هو الشيخ الدكتور ابراهيم الدعيج الصباح.